القومية العربية والاستعمار الفرنسي

بقلم

حبيب جاماتي

ما هي الدولة الاستعمارية التي فاقت غيرها إمعاناً في مناصبة الشعوب العربية العداء ؟ إنجلترا أم فرنسا ؟

ومن هم ألد أعداء العرب ، وأعند خصوم القومية العربية ؟ الإنجليز أم الفرنسيون ؟

الرد على هذا السؤال يؤدي إلى الحيرة : فالفريقان في هذا المضمار سواء يتزاحمان ، ويتسابقان ، وكل منهما يعلل النفس بأن يكون أشد تنكيلاً بالعرب ، وأبعد ضرراً بالقومية العربية ، من الفريق الآخر . . .

والفارق الوحيد بين إنجلترا وفرنسا في هذا الصدد ، يتناول الأسلوب فقط ، لا الهدف والغرض . فالفرنسيون أوفر رعونة وأكثر ضجيجاً من الإنجليز ، والإنجليز أوفر رياء وأكثر نفاقاً من الفرنسيين .

ومن جهة أخرى ، نرى الفرنسيين قد بسطوا نفوذهم ، وفرضوا حكمهم في غفلة من الزمن ، وبسبب التخاذل الذي انتاب الشعوب العربية ، على رقعة من بلدان العرب أوسع من الرقعة التي أخضعها الإنجليز لنفوذهم وحكمهم .

والحديث هنا يقتصر على الفرنسيين . وعلى فرنسا والاستعمار الفرنسى بالنسبة إلى القومية العربية ، قبل أن تصحو من سباتها ، وفى خلال نهضتها وبعد أن انطلقت فى حلبة الرقى والتحرر والسيادة . . .

لنمر بسرعة على الحروب الصليبية التى كان فيها العامل الدينى يلعب الدور الأول . وعلى الصراع الذى قام فى وقت من الأوقات ، وخلال حقبات طويلة ، بين الفرنسيين الراغبين فى السيطرة على البحر المتوسط من ساحله الشمالى نزولاً نحو الجنوب ، وبين العرب الراغبين فى السيطرة على هذا البحر من ساحله الجنوبى صعوداً نحو الشمال .

لنمر بسرعة على ما تخلل ذلك الصراع الرهيب من حوادث حربية وسياسية ، لكى نصل إلى بداية العهد الذى يمكن أن نسميه « عهد الاستعمار » وهو الذى بزغ فجره ، وطلع نجمه ، فى خلال القرن الثامن عشر للميلاد ، بعد أن فتحت أمام الغرب سبل المواصلات مع الشرق ، وزادت شهية الغربيين لالتهام الخيرات التى كانت فى ذلك الوقت من نصيب الشرقيين . . .

وضعت الأمم الأوروبية إمكانياتها الحربية فى خدمة مطامعها التجارية . وتطلعت كل دولة من دول الغرب القوية إلى بقعة من بقاع الشرق حبتها الطبيعة بمركز ممتاز أو بثروة مرموقة . وراحت تسعى لاحتلالها قبل أن تمتد إليها مطامع دولة أخرى . . .

وفى ذلك الوقت ، كان العثمانيون يسيطرون على أقطار عديدة وأقوام

متنافرين . وكانت البلدان العربية كلها خاضعة لحكم السلطان العثمانى الفعلى أو الإسمى ، بما فيها سواحل أفريقيا الشمالية ، التى تتطلع إليها فرنسا وتتبارى معها فى حلبة السباق لبسط النفوذ والتحكم فى البحار . . .

وكان الإنجليز من ناحيتهم يسعون للسيطرة على طريق الهند حيث ثبتوا أقدامهم . وأراد الإمبراطور نابليون الأول ، منذ أن كان لا يزال قائداً من قواد الثورة الفرنسية ، وقبل أن يضع التاج على رأسه ، أن يسبق الإنجليز ويقطع عليهم ذلك الطريق ، تمهيداً لانتزاع الهند منهم . . .

قام بونابرت بحملته على مصر فى سنة ١٧٩٨ . وكانت الحملة موجهة ضد تركيا فى الواقع ، وضد الإنجليز فى الخفاء . . .

تلك الحملة ، فى نظر المؤرخين ، هى بدء الحروب الاستعمارية فى البلدان العربية ، التى كانت لا تزال ، فى ذلك الوقت ، تابعة للإمبراطورية العثمانية . . .

سقط نابليون ، وانهار عرشه ، بعد أن أفلتت منه مصر وبقيت جزءاً من الدولة العثمانية ، وتولى الحكم فيها محمد على باشا وأسرته من بعده . وعادت الملكية إلى فرنسا فراح المسؤولون فى حاشية الملك يبحثون عن مشروعات يشغلون بها الرأى العام فضلاً عن القوات المسلحة . ومن هنا عاودت الفرنسيين الرغبة فى شن حروب استعمارية وكسب ممتلكات وراء البحار . . .

تطلعوا حولهم ، ونشروا أمامهم خريطة العالم . فرأوا إن أقرب البلدان التى يمكن الاعتداء عليها ، والتى لا تملك قوة كافية للدفاع عن نفسها ،

تقع على الساحل الإفريقى الشمالى ، قبالة الساحل الفرنسى من الجنوب ..
ورأوا أن الجزائر أقل البلدان الأفريقية الشمالية مناعة ، فقرروا مهاجمتها .

وافتعلوا حادثاً أصبح منذ ذلك الوقت نموذجاً للدهاء والمكر والتحرش فى مضمار السياسة القائمة على العدوان . فقد تطاول قنصل فرنسا فى الجزائر على حاكمها ، فضربه الحاكم بمنشة كان يحملها ، وكان هذا كافياً لكى ترسل فرنسا إلى الجزائر حملة عسكرية لاحتلالها ، بحجة غسل الإهانة التى لحقت بها فى شخص قنصلها الوقح !

كان ذلك فى سنة ١٨٣٠ فى خلال حكم الملك لويس فيليب . وقد أحرز الفرنسيون فى بادئ الأمر سلسلة من الانتصارات . ولكن القبائل العربية فى الجزائر وحدت كلمتها ، وجمعت صفوفها ، بقيادة البطل الخالد الأمير عبد القادر بن محى الدين ، ونظمت المقاومة ، فاستمرت الحرب بين الوطنيين المجاهدين والغرباء المعتدين سنوات عديدة . .

فحرب الجزائر التى شنتها فرنسا فى عام ١٨٣٠ كانت إذن أول حرب استعمارية ينطبق عليها هذا الوصف ، ذهب ضحيتها شعب عربى ، ومنيت بأضرارها « القومية العربية » الناشئة فى ذلك العهد .

فالأمير عبد القادر الجزائرى لم يحارب فرنسا الاستعمارية بوصفه حاكم الجزائر من قبل السلطان العثمانى بل بوصفه زعيم الشعب العربى فى الجزائر ، وقائد المجاهدين المدافعين عن قوميتهم العربية . فهو ، من الناحية التاريخية أول زعيم عربى قاوم الاستعمار الغربى ، المجسم فى الحملة الفرنسية على الجزائر .

ومن أغرب ما حدث ، قبيل قيام فرنسا بحملتها تلك ، أن دارت مفاوضات بين لويس فيليب ، ملك فرنسا ، ومحمد على باشا ، والى مصر للتعاون بين الصديقين فى احتلال الجزائر ، على أن يقتسما الغنيمة فيما بينهما ولكن محمد على امتنع فى النهاية عن عقد تلك المحالفة التى — لو تمت — لجلبت العار على مصر بسبب حاكمها الغريب ، الذى فضل الزحف على سوريا لانتزاعها من الترك لحسابه الخاص ، على الزحف إلى الغرب نحو الجزائر لاحتلالها بالاشتراك مع فرنسا .

ومنذ أن نجحت فرنسا فى احتلال القطر العربى الباسل ، أو على الأصح فى احتلال سواحله ومواصلة القتال للتغلغل فى داخله ، منذ ذلك الوقت ، أصبحت فرنسا حاملة لواء العداء ضد العرب ، وأدخلت فى صلب سياستها الخارجية ، خطة استعمارية واضحة ، ترمى إلى انتزاع البلدان العربية من أصحابها ، بلداً بعد بلد ، ومنع القومية العربية من التنفس والتبلور والانطلاق من عقالها .

فبعد مرور نصف قرن على اجتياح الجزائر ، وقبل أن تنتهى فرنسا من احتلال البلاد كلها ، وإخضاع قبائلها بالقوة ، نزل الجيش الفرنسى فى تونس ، وفرض عليها معاهدة الحماية فى سنة ١٨٨١ .

كانت ألمانيا قد هزمت فرنسا فى الحرب المشهورة سنة ١٨٧٠ . وخرجت فرنسا من تلك الكارثة مهيضة الجناح جريحة مفلسة . وأراد المسؤولون مرة أخرى أن يشغلوا الرأى العام بحادث يحول أنظاره إلى الخارج ، فافتعلوا الأسباب لإرسال حملة استعمارية إلى الصين الهندية ، ثم لإرسال

حملة أخرى إلى البلاد التونسية .

راحت الجزائر ضحية الطمع الاستعمارى الفرنسى بعد حرب ١٨٣٠ . وراحت تونس بعدها ضحية ذلك الطمع ، بعد حملة ١٨٨١ .

فقد أراد الفرنسيون أن يثأروا لأنفسهم مما حل بهم من هزيمة وعار على أيدى الألمان ، فانتقموا من شعب عربى مسالم لم يسئ إليهم بل كان فى وقت من الأوقات صديقهم وحليفهم !

وهكذا اعتدى الفرنسيون على القومية العربية مرتين ، فى الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وفى تونس سنة ١٨٨١ ، ولا ندخل فى الحساب اعتداءهم على مصر فى سنة ١٧٩٨ . . .

وظلوا سائرين فى هذا الطريق : طريق العدوان على العرب كلما سنحت لهم الفرصة ، أو كلما أرادوا أن يغسلوا سمعتهم من عار لحق بها على أيدى الغير !

عولوا على أخذ أفريقيا الشمالية كلها ، لأن هذا يضمن لهم السيطرة على البحر المتوسط ، وبهذه الوسيلة وحدها يكبحون جماح مزاحميهم الإنجليز أسياد البحار . . .

ولكن الإنجليز قوم يساومون على كل شىء . . .

فساومهم الفرنسيون وتفاهم الفريقان على اقتسام مناطق النفوذ ، على أن يحولوها فيما بعد إلى مناطق احتلال واستعمار .

وكانت المساومة على حساب القومية العربية . . .

القومية العربية الناشئة الصاحية من سباتها فى مصر ، وفى تونس

والجزائر ، وفى المغرب الأقصى ، ثم فى قلب الدولة العثمانية ، فى سوريا ولبنان والحجاز . . .

وقف اللصان ينظران ، ويرقبان ، ويضعان الخطط : اللص الفرنسى الذى أخذ تونس والجزائر ويطمع فى المزيد ، واللص الإنجليزى الذى أخذ مصر فى سنة ١٨٨٢ ويطمع فى الاستئثار بها دون أى منافس .

وتم الاتفاق على العمل معاً فى سنة ١٩٠٤

أطلقت فرنسا يد إنجلترا فى مصر والسودان ، وأطلقت إنجلترا يد فرنسا فى الشمال الإفريقى كله ، بما فيه المغرب الأقصى .

وبدأ الفرنسيون يتدخلون فى شؤون الدولة المغربية المستقلة ، وتحول تدخلهم إلى احتلال ، وأسفر الاحتلال عن فرض معاهدة الحماية فى سنة ١٩١٢ .

ولكن اتفاقية ١٩٠٤ كان لها ذيول ، وكان لها توابع !

قامت الثورة العربية الكبرى ، على الدولة العثمانية ، بقيادة شريف مكة الحسين بن على الهاشمى ، سنة ١٩١٦ . فحالف الإنجليز العرب وحالفهم أيضاً الفرنسيون . ولكن هؤلاء الحلفاء ، خانوا العرب بعد انهيار الدولة العثمانية ، واقتسموا بلادهم التى كانوا قد تعهدوا بأن يساعدوهم على جعلها دولة مستقلة .

الثورة العربية كانت مظهراً من مظاهر القومية العربية الناهضة . وهذه القومية كانت ، فى نظر الفرنسيين ، نذيراً خطراً يهدد سياستهم الاستعمارية .

وهذا تآمروا مع الإنجليز . فاحتل هؤلاء العراق وفلسطين ، واحتلوا هم سوريا ولبنان . وعلاوة على هذا الاحتلال ، جاء الإنجليز باليهود وأحلوهم فى فلسطين ، بحجة إنشاء وطن قومى لهم عملاً بوعد بلفور الصادر سنة ١٩١٧ .

وهكذا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وفى أقل من قرن كامل ، كان الفرنسيون بفضل عدوانهم المتواصل على القومية العربية ، قد احتلوا من أوطان العرب الجزائر ، وتونس ، والمغرب ، وسوريا ، ولبنان . وكان الإنجليز شركاؤهم فى التآمر والعدوان ، قد احتلوا مصر والسودان وعدن والساحل الجنوبى لجزيرة العرب وإمارات الخليج العربى والعراق وفلسطين !

ولكن القومية العربية لم تخمد أنفاسها تحت تلك الضربات المتوالية . فقد واصل العرب جهادهم فى سبيل النهوض والتحرر ، بالوسائل السلمية تارة ، وبالعنف والقوة تارة أخرى . ولم تكن للاستعمار الكلمة الأخيرة ، كما كان المستعمرون يأملون ويعتقدون .

ثارت الأقطار العربية المحتلة كلها على الحكم الأجنبى والطغيان الاستعمارى ، كل منها بدوره : المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وسوريا ، ولبنان ، قامت فى هذه البلدان ثورات ضد الفرنسيين — وقامت أيضاً ، من ناحية أخرى ، ثورات ضد الإنجليز فى الأقطار التى فرضوا عليها حكمهم ، ولم يشذ بلد عربى واحد ، ولم يتردد شعب عربى واحد عن الالتجاء إلى الثورة ، كلما فشلت مساعيه السلمية ، للتخلص من المستعمر واسترداد الحرية الغالية .

ثورات العرب على الفرنسيين سلسلة متواصلة الحلقات :

فى الجزائر لم تنقطع الثورات منذ بدء الاحتلال ، بعضها محلى ، وبعضها عام ، واليوم ، بعد ١٢٦ سنة على نزول الفرنسيين فى الجزائر ، تتحداهم القومية العربية ، وتندلع فى جميع أنحاء البلاد نيران ثورة تذكر الفرنسيين بأهوال المعارك التى خاض غمارها أبطال عبد القادر الجزائرى الميامين !.

وفى تونس ظلت الثورات تهب وتهدأ . ولا تهدأ إلا لكى تهب من جديد ، واشتدت وطأة المقاومة الوطنية . وهبت القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، منذ سنة ١٩٤٥ ، مما أرغمت فرنسا معه على الاعتراف باستقلال تونس وإنهاء نظام الحماية فيها !

وفى المغرب ، تكلل جهاد الوطنيين بالنجاح ، وأسفرت ثوراتهم العديدة عن نتائج انتقل بها المغرب من مصاف بلد خاضع للحماية ، إلى مصاف دولة مستقلة ذات سيادة !

وسوريا ولبنان خلعا نير الحكم الفرنسى بعد الحرب العالمية الثانية . فقد ثار لبنان فى سنة ١٩٤٣ واستقل . وثارت سوريا مرة بعد مرة ، بلا كلل ولا ملل ، وكانت ثورتها الكبرى فى سنة ١٩٢٥ ، وثورتها الأخيرة فى سنة ١٩٤٥ ، فاستقلت أيضاً . . .

كل بلد عربى حل فيه الفرنسيون مستعمرين ، باسم الاحتلال ، أو الحماية ، أو الوصاية ، أو الانتداب ، ثار إذن عليهم ، واسترجع حريته منهم . ولا تزال الجزائر تكافح وتناضل فى هذا السبيل . وسوف تسترجع

حريتها أيضاً ، كاملة غير منقوصة .

وأول قطر عربي استرجع استقلاله من فرنسا ، لبنان . وتبعته سوريا وأنشئت جامعة الدول العربية فى مصر ، سنة ١٩٤٥ .فكانت فرنسا أول دولة ناصبتها العداء ، لأن الجامعة العربية كانت مظهراً ملموساً ، وتطبيقاً عملياً ، ليقظة « القومية العربية » وانطلاقها نحو أهدافها النهائية : التحرر التام ، والوحدة الشاملة .

وهذا ما لا تريده فرنسا لأنه ينطوى على القضاء على استعمارها بجانب من العالم العربى .

ولهذا حاربت الدول العربية مجتمعة فى هيئتها الجديدة ، بعد أن حاربتها متفرقة ، وكلا منها على حدة .

وتجلت ضغينة فرنسا ، وبان حقدها ، وبلغ عداؤها الذروة . فى تآمرها الأخير مع إنجلترا ودولة اليهود الدخيلة فى فلسطين المحتلة ، على الغدر بمصر وإرغامها على الخضوع لإرادة الدولتين الاستعماريتين ، ولمطامع صنيعتهما الصهيونية .

طعنات تلقتها القومية العربية من فرنسا ، خلال ما يزيد عن قرن من الزمان ، كان الذين سددوها إلى صدر العروبة يظنون أنها نافذة قاضية . ولكن العروبة ظلت بخير تعاند القدر وتصارع المعتدين . . .

طعنات متوالية متواصلة . . .

طعنة فى الجزائر سنة ١٨٣٠

طعنة فى تونس سنة ١٨٨١

طعنة فى المغرب سنة ١٩١٢

طعنتان فى سوريا ولبنان سنة ١٩١٩

طعنات عديدة فى هيئة الأمم المتحدة ضد المطالب العربية وقضايا العرب العادلة .

طعنات بعضها يسنده العنف ، وبعضها قائم على الحقد والغدر ، وبعضها ينطوى على التشفى والخيانة ، وكلها فى آن واحد طعنات موجهة إلى العدل ، والإنصاف ، والحق ، والمثل العليا التى خانها الغرب وخرج عليها ، فاحتضنها الشرق وغذاها بالمهج والأرواح !

وتلك الطعنات الفرنسية التى تتابعت خلال قرن وأكثر ، ومعها الطعنات الإنجليزية التى لا تقل عنها فظاعة وغدراً ، كل تلك الطعنات أيا كان نوعها ، وشكلها ، ومداها ، قد ألهبت الشعور فى الصدور ، وأحيت الآمال بين الضلوع ، وساهمت فى إيقاظ العرب من غفوتهم ، وبدل أن تخنق القومية العربية فى مهدها — كما كان يريد المعتدون الضاربون — فعلت عكس ذلك ، فعجلت ترعرع القومية العربية ، وتقويتها ، وفوزها ! . . .

فالقومية العربية الآن ، وبعد كل ما حدث ، قد تغلبت على الاستعمار ، وزحزحته عن معاقله ، وقوضت حصونه ، وهدمت أسواره ، وطاردته فى الميدان حيث يتراجع ويتقهقر نحو الهوة السحيقة التى لا بد له

من السقوط فيها ، عاجلاً أو آجلاً . . .

بل عاجلاً لا آجلاً . . .

فهو الآن ، فهو اليوم ، فهو فى هذه الساعة ، يتعثر ، ويترنح ، ويلهث . . . وهذا مقدمة للهزيمة النهائية ، وللسقطة التى لاقيام بعدها ! .

obeikandl.com